وتركته حائرًا يغني ..

خميسة عفيفي السيد حمزة

اتفقت مع نفسها أن تستجمع شجاعتها وتضع أمام السيد النحال بعض الإشارات التى توحى بحبها له.. فخميسة عفيفى إذا أرادت أن تؤرخ ليوم نقر فيه السيد النحال باب قلبها بطرقات الحب وجدت أنه يوم وقف أمام باب المسجد يخطب فى الناس بثقة وهدوء واتزان مهنئًا بثورة عبد الكريم قاسم فى العراق.. ولم يلفت نظرها أنه متواضع الملابس مقارنة بمن سبقوه من كبار الرجال أو من تحدثوا بعده، إنما شد انتباهها أنهم كانوا هم المتواضعين فى مستوى خطبهم قياسًا بخطبته ..

كانت تقف بعيدًا فى جانب نساء القرية اللاتى تجمعن لمشاهدة هذا الحفل العفوى الذى عقده العمدة بعد صلاة الجمعة، وراحت تسمع ما تنقله البنات من أوصاف يعرفنها عن السيد النحال وسمعت واحدة منهن تنشد مطلعًا لأغنية غرامية من تأليفه، وقالت أخرى إنه لولا فقر أبيه لكان قد انتهى من شهادته وعمل موظفًا وانصلح حاله، ولما قالت الأخرى أن العيب ليس فى الفقر «فكلنا فقراء» «إنما العيب به هو لأنه غاوى صياعة» همت الأولى فزجرتها.. ثم سمعت حديثًا عن مراهناته الليلية فى تكسير أعواد القصب.. وهنا قالت امرأة: «**لا تستهنى بهذا الساعد النحيف فقد قهر ساعد المحروس زوجى الضخم كساق البغل**» فتدفقت ضحكات النساء ومعهن خميسة.

نادرًا ما كانت تعثر عليه ولكنها كثيرًا ما كانت تعثر على من يروى لها عنه فترهف سمعها مستسلمة لخدر ناعم يسرى فى قلبها.. وعرفت أنه ينتقل فى أعمال مختلفة ما بين

الأسواق والمعمار ولا يستمر طويلًا؛ لأنه يضيق بالناس ولا يأنس لهم.

ولكنها علمت بانتقال مجلس الأنس من مصطبة فريد هنيدى إلى مصطبة السيد النحال، وعرفت أن فاروق بن العمدة صاحب الكلب الكبير يسعى لسماع أشعار السيد.

كانت ترهف السمع لرجل يتحدث أمام دكانها عن أمير النحال وكيف كان له فضل حصول مدرسته على المركز الأول فى برنامج أوائل الطلبة، ثم انتقل فجأة للحديث عن أخيه الأكبر السيد النحال قائلًا إن السيد هذا هو العبقرى الحقيقى ولكن لا أحد يعرفه، وراح يعدد مواهبه ويعيد ما قاله ذات مرة أستاذهم من أن بلدنا خسرت اثنين، واحدًا بالموت وواحدًا بالضياع، فأحمد خلف الذى مات وهو فى الثالث الإعدادى كان يصحح الأخطاء لبعض المدرسين، أما السيد النحال فبداخله كما يقول الأستاذ فنان وعالم ومتشرد.. ويبدو أن المتشرد هو الذى سينتصر..

وبعد موقعة جوهر البقال الذى كان السيد يشترى منه سجائره تحول السيد إلى دكانها بإرسال أحد إخوته عرفة أو عوض أو عاشور لشراء حاجته منها، ولاحظت أنه قلما يرسل فى شراء علبة كاملة، فالغالب أنه يأخذ عدة سجائر فى الصباح ومثلها فى المساء.. وذات مرة لم يكن أخوها رجب يعمل معها فى الدكان سارعت بإعطاء عرفة علبة كاملة على أن يخبر السيد أنها ليست متعجلة فى أخذ ثمنها.

وكأنما كان ما فعلته بعفوية ورضا رسالة ناطقة بما فى قلبها، وكأنما وصلت إليه هذه الرسالة وبها شىء من حرارة قلبها العاشق، ولما شاهدته فى اليوم التالى يقبل فى اتجاه دكانها من بعيد دق قلبها دقة الفرح.

وقرب وصوله إلى دكانها تطلّع إليها وعلى فمه ابتسامة واسعة.. ودون أن تدرى ردتها إليه بأحسن منها، ابتسامتين متبادلتين لخصتا حديثًا لم يبوحا به بعد، وكانت ابتسامته هذه المرة بها إعزاز وامتنان وهو يمد يده بقروشه قائلًا:

- «علبة جديدة.. وثمن علبة الأمس».

- «قلت لعرفة إنى غير متعجلة»

- «أعرف.. فلنؤجل هذا الكرم لوقت شحيح المال».

ـ «فى كل الأوقات.. دكانى تحت أمرك»

ـ «بصراحة..»

وقطع حديثه فجأة وهو يتأملها.. فلاحقته بشغف:

ـ «أى صراحة؟..»

ـ «لم أكن أنظر إليك إلا كبنت جميلة، لكن.. جمالك الحقيقى وصلنى فى لمسة الأمس..»

ضحكت فى دلال، وقالت له:

«الحقيقة إنك لم تنظر إلىّ أبدًا.. لا بنت جميلة أو حتى ملكة جمال»

تأملها بعمق وهو يزن كلماتها ثم امتشق سيف الجسارة: «خميسة؟..»

ـ «نعم..»

ـ «إياك أن تكونى قد..»

ولما عاد إلى قطع حديثه مرة أخرى، عادت فلاحقته:

ـ «لا تكمل سؤالك ما دمت قد عرفت ما عندى.»

ولم يكمل سؤاله، وإنما قدم سؤالاً آخر:

«منذ متى؟..»

ـ «منذ أحسست أننى الوحيدة التى يمكنها أن تفهمك فى البلد.. وتعرف مقدارك..»

خفض رأسه أمامها وهو يفكر فى شىء ما، وراح يمعن فيها النظر كأنه يراها لأول مرة وسألها:

ـ «ألم تلاحظى أننى وأنت يجمعنا شىء مشترك؟..»

ـ «ما هو؟..»

ـ «هو أنك لست فى مكانك المستحق، وأنا لست فى مكانى الصحيح..»

كانت تعرف أنه قارئ ومثقف؛ ولذا فقد اجتهدت أن تخاطبه بنفس منطقه:

ـ «المشترك بيننا أنك مثلى.. لا تترك حقك ولا تفرط فى كرامتك، والقوة التى فى يديك تقف على خط واحد مع القوة التى فى عقلك.»

هز رأسه بالموافقة على ما تقوله:

ـ «هذا صحيح، فالبلد كلها تعرف قصتك مع أبيك عندما تزوج صفيه حواس بعد وفاة أمك بأربعين يومًا.. ثم ما فعلته أنت بصفية عندما سرقت بضائع الدكان وحولتها إلى أهلها.. وأنقذوها من يديك وقد كادت تموت تحت أقدامك.»

ـ «لديك علم بكل شيء.»

ـ «طبعًا؛ لأن قصتك لم تكن خلف الأبواب مثل قصص الكثير من الناس.»

ـ «أنا فجرتها بإصرار لوقف أبى عند حده.. فكل مكاسبه من غيط المصلحة كان يضيع نصفها على الحشيش فى حياة أمى، وبعد موت أمى كان يضيع النصف الآخر على صفية وأهلها، ولما سلمها الدكان أيقنت أننى سأموت من الجوع أنا وأخى.»

ـ «أبوك كان يعرف صفية فى حياة أمك.»

ـ «وأمى ماتت محبوسة.»

ـ «وأبوك يسرق أجور الأنفار، ويقاسم الموظفين بها، ويصرفها معهم على الحشيش..»

ـ «ما يكسبه بلا مجهود.. يضّيعه بأقل مجهود..»

ـ «الحشيش..»

ـ «أجل هو الحشيش..»

ابتسم فى خبث:

«كان يشتريه من جوهر البقال»

بادلته ابتسامة مماثلة:

«جوهر لا يعرف شكل الحشيش.. وأنت تعلم ذلك.»

تمادى فى التخابث:

«ألم يضبطوه فى جيبه؟»

ـ «بلى.. ولكن عرفة هو الذى وضعه فى جيبه..»

رفع حاجبيه وبحلق فيها بدهشة وهو يتلفت حواليه:

ـ «أهو الذى قال لك ذلك؟.. الكلب سأقطع رقبته.»

ندت عنها ابتسامة مكتومة:

ـ «أنا أوقعت بك يا كاتب الأغانى.. عرفة لم يفش سركما.. أنا عرفت ذلك من نفسى.. هل نسيت أنكم تربصتم لجوهر من أمام هذا الدكان..؟»

اكتشف أنه أمام فتاة ليست جميلة فقط كما كان يراها بشكل عابر، وليست مليئة بالجدعنة فقط كما اكتشفها بالأمس، ولكنها شديدة الذكاء:

ـ «وهل قلت للناس عن اكتشافك هذا؟»

ردت بسرعة:

ـ «إن لم تحفظ خميسة سر السيد النحال فمن غيرها سيحفظه؟»

تمتم بكلمات مبهمة، وقفز إلى سؤال مباغت:

ـ «أتعرفين نخل الهنادوة؟»

ـ «أعرفه.. بجوار سور جرن المصلحة.. لماذا؟»

ـ «تسللى من المنزل بعد العشاء وقابلينى هناك.»

صمتت طويلًا ثم رشقته بنظرة بها مسحة من الريبة والشك:

ـ «اسمع.. سأقابلك هناك.. ولكن عندى شرط..»

ـ «أى شرط؟..»

ـ «سيكون لقاءً بين رجلين.. هل فهمتنى؟»

دس علبة السجائر فى جيبه، وألقى إليها بنظرة إعجاب ومضى وهو مملوء بالسعادة.

* * *

الخلاء الصامت إلا من حفيف النخيل.. والظلام الدامس.. ورعشة فى القلب سرت حتى أطراف الأنامل.. وجفاف استبد بحلقه فتكسرت على حوافه الكلمات .. وخلوة لا يدرى لم طلبها ولم استجابت لها فتاته بكل هذه الجسارة.. وكلما أيقن أنها بين يديه أنكر على نفسه ما يراه من أنها فعلًا بين يديه..

أمسك بيديها كأنما يود التأكد من وجودهما معًا.. تركت له راحتها لتنام بين راحتيه للحظات معدودة ثم سحبتها فى هدوء.. شيطانه الغافى آخذ فى التثاؤب، دبيب يسرى فى صفحة ظهره ويعلو حتى هامته.. حاول أن يضمها.. جفلت.. اصطدمت يد الفتاة بسيفه الصلب فهبت نحوها رائحة الغدر، دفعته بكلتا يديها فى صدره فتمالك نفسه مستندًا على جذع النخلة:

ـ «ما بك يامجنونة؟.. كدت أسقط على الأرض»

ـ «ولكنك سقطت فى نظرى..»

ـ «هل لأنى أضمك إلى صدرى.؟»

ـ «قلت لك إننا سنلتقى كرجلين. وعاهدتنى على ذلك.»

ـ «لم أعاهدك..»

ـ «العهد ميثاق صامت فى قلوب الشرفاء، وقد ظننتك منهم.»

ـ «إذن فلماذا جئنا إلى هنا..؟»

ـ «لأنك طلبت ذلك..»

ـ «وماذا كان فى ظنك أننا سنفعل..؟»

ـ «ظننتك ستبوح لى بما لم تتمكن من البوح به فى الدكان.»

ـ «يبدو لى أننى أحببتك..»

ـ «عندما تتأكد من ذلك، نادنى وسألتقى بك تحت الشمس.»

ـ «أنت قوية يا خميسة..»

ـ «وأنت ضعيف، خاب ظنى فيك..»

ـ «إلى هذه الدرجة؟»

ـ «إن لم تحافظ على شرف من تحبك.. فمن غيرك يفعل ذلك؟»

ـ «لا أصدق أن هناك من أحبتنى.. خاصة أنت..»

ـ «وأنا الآن فقط لا أصدق أنك أنت الشخص الذى أحببته.»

ـ «أعذرينى يا خميسة، اعذرينى يا بنت الناس، فأنا ضائع.»

ـ «كيف أعذر من حاول النيل من شرفى..؟»

ـ «أنا آسف.. الشيطان غلبنى..»

ـ «لو آمنت بعهدى ما كنت أتيت بالشيطان معك..»

ـ «ماذا أفعل؟.. إنه ملعون.. لا يتركنى لحظة.»

ـ «إنه لا يتبعك، لكنه يعيش بداخلك..»

ـ «يعجبنى حديثك.. وأنا الآن أؤمن به، خسارة..»

ـ «أى خسارة..؟»

ـ «أن تغادرى مدرستك. ولا تنضمى للجامعيات فى العام القادم.»

ـ «ومن قال لك إننى لن أفعل ذلك.. هـل ظننتى استسلمت لغباء أبى؟»

ـ «ألم أقل لك إنك قوية؟»

ـ «لو اتفقنا على تعريف القوة لاقتربنا أكثر..»

ـ «أرى أنها القدرة على تغيير الواقع الأليم.»

ـ «القوة هـى ألا يستسلم الإنسان لضعفه.»

ـ «تعرجين من جديد على حماقتى.»

ـ «لا علاقة بين ما ظللت أؤمن به وبين ما أسميته أنت حماقة»

ـ «إذن، فأنت تؤمنين بذلك من قبل..»

ـ «وكيف تفسر استجابة فتاة لدعوة مكانها الظلام مع شاب تحبه؟»

ـ «الثقة..»

ـ «وهـزيمة الضعف، والنفس الأمارة بالسوء.»

ـ «كيف لم أر فيك كل ذلك يا خميسة..؟»

ـ «لأنك لم تكن ترى إلا نفسك..»

ـ «وأنت أطلعتنى عليها الآن.. هيا بنا..»

* * *

«إلى هذا الحد هذه البنت تحبنى ..وكيف يتفق ذلك مع غلظتها الشديدة وهى تدفعنى بعيدًا عنها، كيف يملك المحب الرقيق كل هذه الشراسة؟ ما بال كل ما فى خميسة يثير الدهشة: جريئة، وذكية، وداهية، ورقيقة، وساخنة، وباردة، وجميلة، وواضحة، وغامضة. لماذا لا تكون لي؟ هى تحبنى منذ زمن بعيد، وتحبنى فى صمت، هى تعرف كل شىء عنى».

وعندما تمدد فى نومته على الأرض فوق موتبته الخشنة، مد يده فأتى بالمصباح الغازى قريبًا منه، وقام فأسند ظهره للحائط ليكتب كلماته الجديدة:

هىّ لىّ

واستحالة تروح لغيرى

راضية بىّ

وعايشه فىّ

قمحها مبدور لطيرى

يا خميسة

يا ونيسة

ياللى حبك فى ضميرى

وخانه الشعر الذى توقف عند ندائه لها بنداء لم يجد ما يقوله بعده، لكنه أحس أن خميسة ملأت قلبه ثم ملكته، بعد أن وضعته أمام نفسه فى ساعة أطلعته فيها على نفسه، وهيجت ذكورته، وهدهدت عواطفه.. ثم تركته حائرًا.. يغنى.